دراسات تاريخية المجلد العاشر العدد الثاني السنة1444هـ/2022م ص ص 484-498

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

الصلحاء في الجزائر من خلال الكتابات الفرنسية (1830-1962م) "الولي الصالح سيد الناصر بوحركات بن عبد الرحمان أنموذجا"

Al-Salha in Algeria through French writings (1830-1962 AD) "The Good Guardian Sayed Al-Nasser Bouhrakat Bin Abd Al-Rahman as a Model"

عدة جميلة
جامعة مصطفى اسطمبولي (معسكر)
مخبر البحث (مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية – جامعة معسكر)،
djamila.adda@univ-mascara.dz

أ.د / طاعة سعد
جامعة ابن خلدون تيارت
مخبر البحث (مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية – جامعة معسكر)،
saad.taa@univ-tiaret.dz

الارسال: 22-05-2022 القبول :2022/09/08 النشر:2022/10/06 المرسل: عدة جميلة

الملخص:

عـرف المجتمـع الجزائـري ظـاهرة الصـلحاء منـذ نهايـة القـرن الحـادي عشـر مـيلادي، إذ لا تخلـو أي قريـة أو مدينـة مـن ولي يحرسـها، فمنـذ التواجـدالعثماني بـالجزائرلـم تحـاول السـلطات العثمانيـة المسـاس بهـذه المقدسـات لمـا لهـا مـن قيمـة في نفـوس الجزائـريين، غير أن الفرنسـيين لمـا احتلـوا الجزائرحـاولوا تغيير ديانـة سـكانها مـن الاسـلام الى المسـيحية، مـن خـلال إصـدارقـوانين مصـادرة الأوقـاف و هـدم الأضـرحة ومحـاولات عـدة مـن قساوسـتها لتنصـير شـعبها، إلا أن محـاولاتهم لطمـس هـويتهم وسـلخهم عـن ديـنهم كلهـا بـاءت بالفشـل، ثـم عمـدوا الدراسـة الصـلحاء ومـدى تـأثيرهم في المجتمعـات المغاربيـة عامـة و المجتمـع الجزائـري خاصـة، ومـدى تـأثيركل صـالح على المنطقـة التي دفـن فيهـا ومـن بـين هـؤلاء الصـلحاءالولي الصـالح ،سـيد الناصـر بوحركـات بـن عبـد الرحمـان دفـين واد القصـب بالأغواط و التي تعتبر قطبا حضاريا ومركزا دينيا منذ القدم.

الكلمات الدالة:الصلحاء، الأولياء، سيد الناصر،بوحركات. بن عبد الرحمان.

Abstract

Algerian society has known the phenomenon of righteousness since the end of the eleventh century AD, as no village or city is without a guardian guarding It .Since the Ottoman presence in Algeria, the Ottoman authorities did not attempt to prejudice these sanctities because of their value in the souls of the Algerians, other than When the French occupied Algeria, they tried to change the religion of its inhabitants from peace to Christianity, by issuing laws confiscating endowments and demolishing endowments .shrines and several attempts by its priests to evangelize its people However, their attempts to obliterate their identity and separate them from their religion were all unsuccessful, so they deliberately To the study of Salha and the extent of their influence on Maghreb societies in general and Algerian society in particular, and the extent of the influence of each Salha on the area in which he was buried Among them is the righteous guardian , Seyyed Al-Nasser Bouhrakat bin Abderrahmane, buried in Oued Al-Qasab in Laghouat, which is considered a pole of civilization

And a religious center since ancient times.

Keywords: Al-Salha, the saints, Sayed Al-Nasser, Bouharakat . Ibn Abd al-Rahman.

المقدمة:

حاول الاستعمار الفرنسي طمس هوية الشعب الجزائري عبر العديد من سياساته الاستدمارية، و إبعاده قدر الإمكان عن دينه وما يربطه به، و لكنه عند إدراكه عدم تخلي هذا الشعب عن دينه ومقوماته، عمد إلى دراسة هذا الدين عبر العديد من الجوانب مستغلا في ذلك الضباط والرحالة والجواسيس، ومن بين هذه الجوانب التي درسها "الصلحاء" كانوا أولياء أو مرابطين أو شيوخ، كما حاولوا استغلال هذه الدراسات في التغلغل في المجتمع و محاولة التحكم فيه عن طريق إبرام معاهدات و إعطاء امتيازات لشيوخ الزوايا قصد تسهيل مهامهم و إخضاع الشعب بأي طريقة لضمان عدم مقاومتهم .

للصلحاء في المجتمع الجزائري تعريفات عديدة وألقاب مختلفة، فالصلحاء عامة ارتبطوا بالدين فكل حافظ للقرآن هو شخص صالح، لكن الصلحاء في دراستنا هذه المراد بها صاحب البركة أي الولي المعروف بكراماته، ومن بين هؤلاء الأولياء الذين خضعوا للدراسات الاستعمارية سيد الناصر بوحركات بن عبد الرحمان.

1-الصلحاء في الكتابات الفرنسية :

1-1لغة: و مفردها صالح وهو من الصلاح: ضد الفساد، وهو صالح وصليح، والجمع صلحاء وصلوح؛ و صَلُحَ كصَلَحَ، قال ابن دريد: و ليس صَلُحَ بثَبَت. و رجل صالح في نفسه من قوم الصلحاء ومصلح في أعمال أموره، و قد الله، و الإصلاح نقيض الفساد[1]كما إن الصالح هو من امتثل لأمر الله و اجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد في طاعته، جل وعلا، وبحث عن أمر كسبه[2].

1-2اصطلاحا:

غالبا ما نجد كلمة "saint" و التي تعني القديس في الديانة المسيحية، أما في الإسلام فنجد المقصود منها الولي الصالح،كما جاء في كتاب " L'Algérie Légendaire" للكلونيل"CornailTrumlet"، في وصفه للولي الصالح سيدي عبد القادر الجيلاني(Sultan Salihin) اي سلطان الصالحين[3]

جاء في كتاب "ادموند دوتي" " الصلحاء" في تعريفه لكلمة الصلحاء ومكانتهم في المغرب العربي: ان الديانة محمد، ديانة توحيدية كبرى مطلقة، قارة، و باردة جدا، حيث تنعدم الوسائط بين الخالق و المخلوق، إذ يكفي المرء أن يكون مسلما وينطق بشهادة أن لا إله الا الله أن محمدا رسول الله، ولكن من الأشياء التي يستغرب لها عادة أصحاب هذا الرأي ذلك التطور الكبير الذي عرفته مسألة زيارة الأولياء في اعتناق الإسلام، و تقديس الأشخاص المعروفين بالتقوى و الورع، و غياب ذلك الرابط بين الله و بين المؤمن، مما كان باعثا عند الناس إلىالبحث عن وسائط و جعلهم يخفون ذلك تحت مسألة الشفاعة، وأن العقيدة الإسلامية انصاعت الى التبرك بالصلحاء وتقبلته عقيدة من العقائد[4].

1-3ظاهرة الصلحاء في الجزائر:

ارتبطت ظاهرة الصلحاء بالطرق الصوفية، ونشأت بجوار الولي الصالح الذي عرفت باسمه، وتعتمد في شرعيتها على مجموعة من الأولياء الصالحين لهم اتصال مباشر بالرسول ﷺ يتلقون منه أذكار و أوراد الطريقة[5]، إن ظاهرة الصلحاء ليست وليدة التاريخ المعاصر بل عرفتها الإنسانية منذ أقدم عصورها، و تعود جذورها في المغرب للرباط والتي ظهرت مع الفتح الإسلامي و يقصد بالرباط المكان الذي يلتقي فيه المجاهدون و الصالحون من المؤمنين لعبادة الله و ذكره و التفقه في أمور الدين، وهذا كان بعد القرن القرن الخامس الهجري فهي الأساس الأول لقيام الزوايا فالمغرب [6].

شاعت الألقاب في العهد العثماني و ادعاء الشرف بكثرة حتى انه لا يكاد يوجد عالم أو صالح قد اشتهر أمره بين الناس إلا و اسمه مقرون بالشريف أو الحسني ، و بعضهم كان يدعي أنه من شرفاء مكناس أو فاس أو من شرفاء الساقية الحمراء و قد استوى في هذا الادعاء علماء و صلحاء الحواضر و البوادي على حد سواء، وهذا كان من أجل رفع المكانة وتميز ، وأنتقل هذا الأمر لبعض الباشاوات ادعائهم الشرف والنسب الصالح بالرغم انهم لايمتون له بأي صلة أمثال أحمد البوني و محمد بكداش، و تعود فئة الأشراف الى الظهور الى أوائل القرن 17م -11م حيث بنى لهم الباشا محمد بكداش أول زاوية لهم و هذا ما يفسر في الغالب نسبه اليهم[7]

كما يتبرع الناس لهذا المركز فيكبر و يثرى و يتضاعف مريدوه و يصبح اسم المتصوف(المرابط) علما على المكان، و يصبح المكان يدعى بين الناس زاوية سيدي فلان أو رباط سيدي فلان فإذا مات صاحبها أي" سيدي فلان" يدفن في الزاوية أو في الرباط و يصير الضريح علامة على الزاوية، وهذه علامة على الضريح، و يرث أولاده و احفاده مكانة الولي الصالح المدفون في ضريح، وتزداد قداسة الزاوية او الرباط بين أهل الناحية و تنتشر سمعتها ونفودها إلى نواحي اخرى بعيدة، وهكذا[8]

2-أسباب اهتمام الفرنسيين بدراسة الصلحاء:

2-1أسباب دينية

إن المتمعن للواقع الديني للجزائر قبل الغزو، يلاحظ الانتشار الواسع لأماكن القداسة المرتبطة بالصلحاء و الأولياء، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن التأثير الديني لهؤلاء الصلحاء على المجتمع من جهة[9]، و على تأثير ذلك على الفرنسيين من جهة أخرى مما زاد اهتمامهم بهم، فمع بداية الغزو الفرنسي للجزائر أمرت الحكومة الفرنسية أن يعتنق المسلمون الديانة المسيحية[10]للقضاء على الأديان غير النصرانية واستعباد أتباعها[11] واعطى لاحتلال الفرنسي للجزائر صبغة دينية، في دعوة لإنقاذ المسيحية و المسيحيين من عش القراصنة[12] بمساع حثيثة لنشر المسيحية و هذا عبر تمسيح مسجد كتشاوة، و تأسيس أسقفية الجزائر ، و مشروع إرسال العزاريين للجزائر،

مرورا بمجهودات البارون أغسطين دوفيلار و أخته ابميلي دوفيلار، وكذا الأسقف ديبيش، و لافيجري[13]، والتي فشلت في عمومها، أمام صمود الجزائريين و تمسكهم بدينهم و حضارتهم الإسلامية[14]. ليعتمد الاستعمار الفرنسي فكرة فرق تسد و يتحول إلى تبشير منطقة القبائل، إذ يعتبر القس "Raynal" صاحب كتاب " التاريخ الفلسفي و السياسي للاستيطان الأوروبي و التجارة الأوروبية في شمال إفريقيا" أول من تحدث عن "الأسطورة القبائلية" و التي جاء فيها (إنهم نسل من الوندال: أعينهم زرقاء و شعرهم أشقر) و فتور في عقيدتهم الدينية و انتمائهم السطحي للإسلام و خضوعهم "لهيمنة المرابطين"، ونزوعهم الأبدي للاستقلال[15]،و دعوة لتمسيح القبائل و العودة إلى دينهم الأصلي، ليظهر القبائل الخاضعون للتأثير المباشر الذي يمارسه "إمرابطن"-المرابط-عليهم، تقبلا و احترام اتجاه أشخاص" المرابطين المسيحيين" و لكن ذلك لم يمنعهم من رفض التبشير المسيحي:"نفضل أن نرى أولادنا يموتون على رؤيتهم و قد تحولوا الى المسيحية"، فلا نجد اي حالة تنصير في بلاد القبائل في الفترة الممتدة من سنة 1863م الى 1871م[16].

جاء على لسان الضباط الفرنسيين بأن مسلمي الجزائر مرتبطون بالإسلام بشكل قوي"و بأنهم "واقعون تحت سحره" غير انه هناك العديد من الشهادات التي تقول بأنها"عبادة الاباء والأجداد" تشهد على ذلك الأسماء المشتركة أو الأنساب القبلية (الشجرة)فرا عن غيره، في نظر السلفية الإسلامية، فقد جرى الاعتقاد أحيانا بإمكانية الوصول يوما الى انشقاق الاسلام الجزائري[17]،أو عبادة بعض الشخصيات المحلية "من أهل الخير"الأحياء و الذين نطلق عليم اسم "مرابو" أي المرابط. حيث أن تقديس "أولياء الله" لا يقل كونهم يربطون المجتمع العروشي بمجموع الأمة الإسلامية ، و من هنا برزت عدة دراسات عن الصلحاء خاصة و الدين الإسلامي عامة.

فإدموند دوتي في كتابه " الصلحاء" يقول عن ظاهرة تقديس الأولياء " إن تقديس الأولياء لا يجد تفسيره فقط في هذا الجهل وحده ،ذلك ان هذا الجهل أيضا كان منتشرا في المدن المشهورة بثقافة سكانها من قبيل تلمسان و حتى تونس و من جهة أخرى، فإن السكان الذين يعيشون في ضلالات دينية مثل بقية قبائل شبه جزية العربية في الجنوب لا يكادون يعرفون تقديس الأولياء إلا لماما. و الشيء نفسه ينطبق تماما على قبائل الطوارق الذين يعتبر جهلهم و عدم مبالاتهم بالدين مضرب مثل بقية الصحراويين، و ليس للصلحاء في أوساطهم سوى تأثير قليل لا يكاد يذكر[18].

فدرس الفرنسيون الدين الإسلامي لمحاولة معرفة سبب إرتباط هذا الشعب به وتمسكه بدينه،فعادوا الى من إلى القرآن الكريم فنجد مثلا مقالتين في المجلة الإفريقية "LaReو الدvue Africaine" العدد 12 من سنة 1886م بعنوان"LE CORAN PAR ORDRE DE MATIERE" و التي تعني "ترتيب المواد في القرآن الكريم" و جاء في هاتين المقالتين دراسات للزواج و الطلاق و العلاقات الاجتماعية واليتامى،و الخدم،و العبيد،و التبني،و العزاب،و الأقربون،و الأسرى و الاخلاء،الجواري،ما على المرأة و ما على الرجل،و ما على الرجل للمرأة،ووجود

ذكر للصلحاء في القرآن[19]. في محاولة منهم لفصلهم عن دينهم لكن محاولات نشر المسيحية في اوساط المجتمع الجزائري كلها باءت بالفشل فما كان منهم إلا أن يستعملوا هذا الرابط المتين الذي بينهم وبين الدين بأن يخضعوه لهم .

2-2 الأسباب ثقافية:

إظهار المرابطين،انهم ذوي مستوى ثقافي و علمي ناقص، كتعليق على رسائل المرابطين (الجنود)، بتقديم رسائل تحوي على أخطاء إملائية و أسلوب تعبيري ركيك[20]، أو كما جاء في كتاب "لويس رين"(LUIS RIN MARABOUTS ET KHOANS)، تقليله من شأن المرابط سليل النسب الشريف بذكره أن :"نجد قبائل كاملة من المرابطين أمثال أولاد سيد الشيخ و الشرفة و غيرهم، و غني عن القول ان هذه القبائل جاهلة تماما، و ليس لها أي نفوذ"[21]، إلا أن ثورة اولاد سيد الشيخ(1864م-1867م)، أظهرت عكس المزاعم الفرنسية، التي وصفو فيها بالجهل وعدم النفوذ[22]، ففرنسا عملت ومنذ البداية على اتخاذ سياسة استعمارية واضحة للقضاء على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الثقافية و الأخلاقية، هددت بالتالي أوضاعه الثقافية، و هذا بالتركيز على محاربة الدين الإسلامي خشية التمسك به، فتفقد مطامعها الاستعمارية الاستيطانية، فتفقد كيان وجودها بالجزائر[23]

3-2 الأسباب الاجتماعية:

لقد حاول البحث السوسيولوجي الاستعماري إبراز الصلحاء في المجتمع الجزائري سنة 1830م، و كأنهم فئة تتعالى عن باقي مكونات المجتمع، فئة تتمتع بمصالح مادية و معنوية، لكن الدراسة التاريخية لظاهرة الصلحاء تظهر لنا أن الصالح او الولي أو المرابط كان شخصا منخرطا في حياة المجتمع، حيث لم يمنعه وضعه المميز من المشاركة في التاريخ الاجتماعي و السياسي للمجتمع، فكان هؤلاء لا يتوقفون عن تسيير النزاعات القبلية و تبني المطالب للرعية اتجاه السلطة[24]، فالصلحاء في المجتمع الجزائري لهم مكانة مهمة فهم يعلمون الناس الصلاة، و يهدونهم الى مكارم الأخلاق، و مقابل ذلك يجنون الطاعة المطلقة المحفوفة بالاحترام، إذ يسود الاعتقاد لدى القبائل أن دعاء المرابط مقبول عند الله، وهكذا على بركة أو سخط المرابط تتوقف سعادتهم في اعتقادهم، فيتوجب على من أراد الرضى ان يقدم القرابين إن أراد أن تتحقق امانيه، أما من تلاحقه شرور دعوات المرابط فإنه مذنب سيعاقبه الله سبحانه وتعالى، وحتى بعد موتهم تدفن أجسادهم في قبر يحاط به تابوت[25]،

ان المرابط الذي يعرف أغراض دينه يعرف كيف يسخره تسخيرا مثمرا و ذكيا جميع الوسائل الموجودة بين يديه. إنه لن يقول للقبائل يجب ان تطيعوا القانون، و إنما يقول لهم: لعن الله من لا يفعل كذا ! ..... وهنا يجعلهم يطيعون و يحصل منهم على كل ما يريد، و إذا اقتضى الأمر يستعمل عبارات مطلقة تبدو كأوامر العلي

الجبار، غير أن هؤلاء المرابطين يتصرفون بلطافة وكياسة و لا يسمحون أبداً بالقيام بأمر يتعارض مع كرامة أو عادات الشعب و بهذا السلوك يحتفظ هؤلاء المرابطون بنفوذ لا حدود له[26]

اتخاذ المرابطين كمنقذ أو كحام[27]، إذ لعب المرابط دورا هاما في توفير الحماية للمسافرين عبر الطرقات، و تأمين التجارة، و الفلاحة ، مثل الدور الذي لعبه مرابط القليعة، حيث أنه بعد تم اعتقاله ظلما من طرف الاحتلال بعد الغزو مباشرة، كثر اللصوص في المنطقة، و اصبحت الطرقات غير مؤمنة، و شحت الموارد في الأسواق و ارتفع ثمنه السلع[28].

و لعل مثل هذه الأمثلة الكثيرة و المتعددة تظهر بما لا يدع مجالا للشك العلاقات الوطيدة بين الصوفية و المجتمع و مدى تأثير الصلحاء فيها[29]

2-4الأسباب الاقتصادية:

لطالما ارتبطت أسماء الزوايا بالولي الصالح كالزاوية التيجانية نسبة لسيدي التيجاني أو زاوية الهامل نسبة لسيدي بلقاسم الهاملي، و ارتبطت طقوس الزيارة سواء بالضريح او بالزاوية بالهبة"الزيارة" كما يطلق عليها، و هي إعطاء الزائر للمقدم المسؤول عن الضريح أو عن الزاوية مبلغا من المال أو ما يساويه من حبوب(قمح، شعير او حبوب جافة كالزبيب او البرقوق...) أو حيوانات(دجاج، ماعز، غنم وأبقار..) حتى يتقبل الولي الصالح زيارته، و كلما كانت العطايا او الهبات ذات قيمة أكبر كالحلي (الفضية أو الذهبية) تنال دعوته الاستجابة، و تزيد هذه العطايا خاصة في مواسم الزيارات الكبرى حيث تحسب الحبوب القناطير و الحيوانات بالمئات و الى غير ذلك من الهدايا المختلفة التي تقدم للمقدم عن الضريح او عن الزاوية، كما يتلقى المقدم الزكاة و العشور وتوكيل إليه مهمة توزيعها على الفقراء[30].

كما كان من الواجب على الإخوان أيضا دفع الهدية لخزينة الطريقة، و الهدية على هذا النحو تفرض على الإخوان الذين أخلو بواجباته التي ينص عليها النظام الداخلي أو ل يمارسوا الشعائر المطلوبة منه، فهي في الواقع نوع من الغرامة أو العقوبة و هناك حتى هدايا يدفعها بعض الرؤساء الزمنيين(الحكام) اتقاء لعنة الشيخ، خاصة منهم الذين لم ينضموا للثورة التي يدعى إليها الشيخ[31].

ومن هنا فإن الفرنسيين رأوا أن أموالا طائلة كان يجمعها أصحاب الطرق الصوفية تحت غطاء الدين و أن ذلك يعتبر منافسة لهم في الحكم، و إن الفكرة التي جاء بها الفرنسيون أن علامات الطاعة و الخضوع عند العرب و المسلين هي الالتزام المالي من غرامة و ضريبة ونحوهما، تعتبر الزاوية ثروة و كنز المحتاجين، بالإضافة للزيارة هنالك الحبوس، أو كما تسمى الأوقاف التي يتوجه اليها الطلبة و المسافرون و التي كانت تعتبر مكسبا ماديا توفر دخلا ماليا كبيرا من حيث استغلالها في التجارة أو الكراء[32].

كما احتلت الأرض مكانة كبيرة وسط العشائر و القبائل المحلية و التي امتازت بطابعها الفلاحي والرعوي، وبسبب الملكية الجماعية لهذه الأراضي، والتي قام فرنسا بتفتيتها، وتصفيتها بفعل سلسلة من المراسيم و القوانين التي نصت على رفع الحصانة على أراضي الفردية والوقيفة و إدخالها ضمن المعاملات العقارية، مثل مرسوم 08 مارس 1830م، و مرسوم أكتوبر 1844من و قرار 30 أكتوبر 1858م و قانون سيناتوس كونسلت 1863م وقانون 1873م، الذي وضع حدا نهائيا للملكية الفردية و الموقوفة[33]

5-2 الأسباب العسكرية والسياسية:

استغلت فرنسا الصراعات الموجودة بين القبائل وعروش كل منطقة في الجزائ، وبسطت نفوذها وقد مهدت لهذا عبر بث جواسيسها أو ما يسمى بالمكاتب العربية والتي كان من ضمن موضفيها مجموعة من الصلحاء المحليين[34]

حاربت فرنسا شيوخ الزوايا و الطرق الصوفية حيث وجهت فرنسا أنظار خبرائها (علماء النفس، والأنثربولوجيا و الاديان و اللغات...الخ) إلى دراسة الطرق الصوفية ومحاولة تقييدها بشراء ذمم التابعين لها و فرضت عليهم مراقبة شديدة ونفي للعديد منهم و أصبحت الزعامات المحلية تابعة إراديا لا إراديا لفرنسا وهذا نتيجة الخوف و الخطر الذي كانوا يشكلونه على الامن العام نظرا لما لهم من نفوذ على أتباعهم[35]لأن هؤلاء الصلحاء احتلوا مرتبة في النظام السياسي الذي كان يسود الجزائر إبان العهد العثماني، حيث كان حاكم كل مدينة يختار من الأسر الشريفة و المرابطين، شخصا يسمى نقيب الأشراف، وواجبه أنه كلما حدث أمر هام، أن يجمع في بيته شيخ البلدة و سائر الأمناء التابعين له للبحث عن التدابير التي يجب اتخاذها، فهؤلاء هم الذين ينظمون شؤون المدينة، و إليهم تلجأ السلطة في جميع الحالات[36].

نمت الطرق الصوفية، قبل الاوان و اكتسبت قاعدة شعبية كبيرة، و استعادت بلهف العديد من الفئات الشعبية، التي عانت من حرمان الحقوق في ظل الأزمات التي شهدتها الجزائر في ظل الحكم العثماني[37]، فاستغلت فرنسا هذا الأمر، و نشرت بيانات مختلفة و التي يكاد يكون معناها واحد و التي تدعو العرب لمصادقة الفرنسيين، و تعدهم وعدا قاطعا بأنه لم يعد يشترط عليهم دفع الضرائب التي تعودوا دفعها للأتراك، و بأن جميع الإهانات و الظلم سيتوقف، و بأنهم سيتمتعون بالعدالة و الحرية، و تضمن لهم حرية العبادة[38].

.إهتمت السلطة الفرنسية بالصلحاء ، فمولت الزوايا بالأموال لتوسيعها و ترميم الأضرحة، اضافة لذلك يحافظ هؤلاء المرابطون و الشرفة على مكانتهم الدينية ويقومون بتوسيعها، ذلك مقابل خدمة الإدارة الفرنسية، فنجد أحفاد الولي الصالح "سيدي الشيخ" سيدي سليمان بن حمزة الابن الاكبر لسيدي حمزة بن بوكر سليل الولي الصالح للجنوب الجزائري سيدي الشيخ و الذي عين سنة 1850م، خليفة ولاد سيد الشيخ الشراقة و حفاظا على منصبه ساعد الفرنسيين قمع مقاومة شريف ورقة سيدي محمد بن عبد الله برفقة الجنرال

دوريو"DURRIEU"[39].ويتضح من خلال هذه الاسباب محاولة فهم الادارة الفرنسية لمجتمع الصلحاء ، حتى تتمكن من استغلال هؤلاء دينيا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا لخدمة أغراض تواجدها في الجزائر ، ومن هذا المنطلق فقد أبدت الحكومة الفرنسية اهتماما بالغاً بالأشراف والصلحاء ومن هؤلاء أولاد سيد الناصر بوحركات بن عبد الرحمان.

3-التعريف بسيد الناصر بوحركات بن عبد الرحمان:

3-1نسبه:

اسمه سيدي الناصر بن عبد الرحمان بن محمد بن علي بن عمر بن أبي القاسم بن عبد الله بن حمزة بن عيسى بن موسى بن أحمد بن منصور بن محمد العساكري بن عيسى الراضي بن موسى المرتضى بن عبد الله بن أبي جعفر الصادق بن محمد الناطق بن علي زين العابدين بن الحسين، بن علي بن أبي طالب زوج السيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، وهو من الشرفاء الحسينيين و تسمى سلالته بأولاد الناصر[40]، و هذا ما يؤكده كتاب الأنساب: الأنوار الدررية الباهرة في ذرية سيدتنا فاطمة الزهراء الطاهرة[41].

إذ لم نجد في الكتابات الفرنسية نسب سيدي الناصر بن عبد الرحمان و هذا راجع لاهتمامهم بأساطيره، و التي أثرت بشكل كبير على المجتمع أكثر من نسبه الشريف.

3-2حياته:

ولد سيدي الناصر بن عبد الرحمان بالساقية الحمراء، ولقب بسلطان مازونة[42]، لأنه حكمها في عهد بني عبد الواد، في فترة حكم الأمير عبد الملك الذي حكم تلمسان، في القرن الثالث عشر[43]، وعند بحثنا عن هذا الأخير في جدول أمراء وملوك بن عبد الواد لم نجده، إلا إن كان أبو مالك عبد الواحد بن موسى، الذي حكم تلمسان من 1412م الى غاية 1424م[44] و التي لا تتزامن مع الفترة التي عاش فيها الولي الصالح، حسبما جاءت به ماتياقودري في كتابها المجتمع النسوي في جبال عمور وكسال، أما في كتاب " L'Algérie légendaire" لصاحبه" C.Trumlet" أن الفترة التي عاش فيها الولي الصالح بصحراء وتحديدا بالأغواط كانت الفترة التي تم فيها بناء قصر تاجموت سنة 1666م وهذا هو الأرجح لأنه عاصر الولي صالح سيد الحاج عيسى دفين الأغواط و الذي عاش خلال فترة بناء قصر تاجموت ،[45] و أكده "Emile Dermenghem "في كتابه"Le pays d'Abel" عند تطرقه لموضوع تأسيس الأغواط[46]

لم تتوفر حول هذا الولي الصالح أبحاث أكاديمة دقيقة، إلا إذا عدنا إلى الكتابات الكلونيالية فإننا نجدها شحيحة، وليست دقيقة فيما يخص التواريخ لأنها متضاربة، فيبدو للباحث من الوهلة الأولى أنها منقولة من مصدر واحد، ومن الأرجح أن تكون شفهية، لأننا نجد بعض الاختلافات في المعلومات التي جاءت عنه

3-3مكانة سيد الناصر بوحركات فالمنطقة:

جاء في كتابE. MONGIN.NOTE SUR L'HSTOIRE DE LAGHOUAT

" في قصر بن بوتة كان هنالك رجل صالح معروف كثيرا في المنطقة يدعى سيد الناصر، هذا الرجل الصالح كان لديه في البلاد سمعة جيدة، و أي كان من لديه مراد من الله،فليتأكد أنه سيحصل عليه، لما كان لديه من فضائل ، فإن الله لا يرفض دعواته، و كان العديد من الناس يتقربون إليه ليحصلوا على بركاته[47]

3-4أسطورة تأسيس مدينة غدامس:

لم تأت الكتابات لا الفرنسية و العربية كيفية انتقال الولي الصالح سيد الناصر بن عبد الرحمان الى منطقة الأغواط حيث عاش أصحاب قصور: بومندالة و بدلة و قصر بن فتاح أو بن فتوح و قصر بن بوتة، حيث فضل العيش في قصر بن بوتة و الدعاء لهم، و الذي كانت من كراماته تقبل الله عز وجل جميع دعواته فكان يدعو للكبير و الصغير عدا شخص واحد وهو "علي بن بلاج" ابن شيخ من قصر قصبة بن فتاح، رغم توسلاته المتكررة، لكن الولي الصالح لم يستمع إليه ولم يلتفت له حتى، لأمر لا يعلمه إلا الله وحده[48]

كان للولي الصالح سيد الناصر ابنة جميلة اسمها "جوهرة" كان اعتزازا وفخر أبيها، حافظة للقرآن مقتدية بسنة رسول الله، عشقها كل من رآها و كان "علي بن بلاج"واحدا منهم، فخطبها من ا الولي الصالح سيد الناصر و الذي أعرض عنه في خطبتها كما أعرض عنه سابقا في الدعاء له، و أجابه أنها مخطوبة للشاب سعيد بن بوزهار من قصر بن بوتة، الذي كان يقيم فيه الولي الصالح، فأقسم في نفسه على انتقام و أخذها بالقوة، فقام باختطافها ليلة زفافها حيث انتظر نهاية مراسيم الزفاف و داهم العروسين في غرفتهم بعد أن حاصرها رفقاؤه، و أخذ الجميلة "جوهرة" و قتل العريس "السعيد بن بوزهار" عندما حاول منعه من أخذه زوجته ولاذ بالفرار، و عندما لاحقه أتباع الولي و لم يجد له مخرجا، اغتصبها ثم قتلها وانتحر، و ما إن وصل الخبر إلى الولي الصالح سيد الناصر حتى امتلأ قلبه حزنا و غضبا ودعا الله باكيا" ياربي شتت ناس قصبة بن فتاح كما شتت الرمل "[49]

و في رواية أخرى: أنه أخذ حفنة من الرمل و نفخ فيها حتى تناثرت و قال" ألهم اجعل سكان قصبة بن فتوح يتناثرون كما تناثر هذا الرمل" فستجاب له الله سبحانه و تعالى لدعائه[50]، وما إن بزغت الشمس حتى وجد سكان قصبة بن فتوح أنفسهم على بعد مائتي و ثمانون مكانا-آلاف الكيلومترات- و قصبة بن فتوح أصبحت صحراء[51]،

بعد اللعنة التي أصابتهم وجدوا أنفسهم في المكان المسمى حاليا "غدامس"[52] أين وجدو قبلهم عائلات نازحة مطرودة من فزان بعد ارتكابهم لجرائم قتل في حق أحد إخوة الولي الصالح سيد الناصر، فسألوهم من أين جئتم و كيف جئتم فأجابوهم من قصبة بن فتوح: نحن سكان قصبة بن فتوح من واد مزي وكنا نتناول غداءنا أمس، غير أن العائلات النازحة من فزان لم تكثر الأسئلة مخافة ان يسألوهم بدورهم عن سبب تواجههم في هذا المكان، و من هنا جاءت تسمية المدينة"غدامس"" غداءنا أمس" و التي أسست في القرن 13م[53]. حيث نجد هذه الأسطورة في العديد من الكتابات الفرنسية التي جاءت فيها ذكر القصور التي تشكلت منها مدينة الأغواط[54] و أيضا في المقال المنشور في المجلة الإفريقية[55]

وعند عودتي إلى سكان مدينة الأغواط و سألت كبارها ومشايخها عن هذه الأسطورة، فإن أغلبهم أو كلهم لم يسمعوا عنها، حتى سكان واد القصب و دائرة الحاج المشري التي يسكنها ولاد سيد الناصر لم يسمعوا بها و أنكروا إقامة الولي الصالح بالأغواط، بل أشادوا أنهم كانوا أول من آوى الولي الصالح مباشرة بعد قدومه من مدينة مازونة.

3-5رحلة سيد الناصر بن عبد الرحمان الى واد القصب و استقرارهنالك:

بعد الحادثة الأليمة التي حلت بالولي الصالح سيد الناصر بن عبد الرحمان، وما حل بقصر بن فتاح، لم يرد البقاء بقصر بن بوتة لأن المكان يذكره بابنته الوحيدة، تاركا وراءه باقي سكان القصور يتقاتلن فيما بينهم،و سار غربا لمدة عشرة أيام بدون أن يتوقف أو يحدد مكانا، ليخر واقعا من التعب في مكان بالقرب من قصر ستيتن و الشطيط الشرقي أسفل ضاحية العمرة ليعيش عيشة الزهد و يطلق الدنيا، في خلوته يعبد الله فيها بعيدا عن الناس على ضفاف واد القصب و الذي سمي لاحقا باسمه" واد سيد الناصر"، لتكتشف هذه لخلوة لاحقا من قبل قبائل الأحرار[56] الذين استوطنوا حوله بعد ما علموا انه ولي صالح، ففرحوا بذلك و احتفوا به و أكرموه و قدموا له الإخلاص و الولاء، لتلقي البركة منه، لتصبح خلوته لاحقا مزارا له بهذه المنطقة [57]،

3-6أبناءه:

و إذا ما قارنا المعلومات التي جاء بها ترويلي أو ماتياقودري أو حتى مونجان، فإن لسيدي الناصر ابنة واحدة قتلت، أما في مخطوط الياقوتة الوافية و الدرة الصافية للعشماوي فإن لهذا الولي الصالح اثنان و عشرون ولدا منذ أن حاكما على سجلماسة و انتقاله الى مازونة ثم الصحراء[58] أما في الكتابات الفرنسية إننا لا نجد سوى ابنته جوهرة و أبناءه المولودون من نساء قبائل الأحرار إذ تزوج أربعة نساء منهم ووهبه الله أربعة بنات، وعلى أمل أن يهبه الله ولدا طلق زوجاته الأربعة، وتزوج أربعة نساء اخريات من قبيلة الاحرار و هبه الله ثلاث بنات و وولد في آخر حياته، ليقوم أحفاده لاحقا بالسكن حول الضريح و يكونوا قبيلة سيدي الناصر أو بما يسمى حاليا ولاد سيدي الناصر [59].

لا تركز الكتابات الفرنسية إجمالا على حياة الصلحاء قبل مجيئهم إلى الجزائر، بل تعتمد على الأساطير التي يتبرك بها التابعون لهذا الصالح أيا كان، تمركزهم الجغرافي و أحفاده وعلاقتهم بفرنسا وهذا كان بهدف لمعرفتهم ومراقبتهم.

3-7وفاته:

توفي سيدي الناصر بوحركات بن عبد الرحمان عن عمر ناهز السبعين سنة و بنى له الأحرار ضريحا بقبة كبيرة في مكان خلوته ليبقى الضريح ملاذ الفقراء و المسافرين[60]

8-3 كرامات الولي الصالح سيد الناصر:

من كرامات هذا الولي، دعاءه المستجاب فالمرأة العاقر فتصبح ولودا، و الرجل المريض ترد له عافيته، و الرجل الذي يترك عائلته يعود إليها، و على الجميع الثناء على الولي الصالح لما له من فضائل عليهم، و الدعوات المستجابة له[61]

أما من كرامات الولي الصالح بعد مماته أن ضريحه أصبح ملاذا للجوعى من فقراء ومساكين و عرف ب" بات تتعشى" إذ بمجرد نوم الجائع في الضريح فإنه يحلم بالولي الصالح سيدي الناصر يسقيه من أشهى الأصناف، و يستيقظ شبعانا مليء البطن[62]،وأن كل من يقوم بإبرام عقد أمام ضريحه، وكانت له نية سيئة فإنه يفقد بصره بمجرد الإخلال بشروط العقد[63].

أما ما كراماته من خلال الحكايات المحلية هو ما يحدث للواد قبل الوعدة التي تقام كل خريف فإن واد سيد الناصر واد مالح طوال أيام السنة، وما إن تدق أوتاد الخيم من أجل هذا التجمع السنوي فإن المياه المالحة تتحول الى مياه حلوة صاللحة للشرب طوال ثلاثة أيام أو اربعة وما إن يغادر الناس من حول الضريح حتى تعود مياه الوادي الى ملوحتها

9-3العلاقات الفرنسية بأولاد سيد الناصر:

شكلت قبيلة الأحرار أحد أهم الارستقراطيات الحربية و الإدارية و السياسية و الدينية في المجتمع الديني بالغرب الجزائري، إذ تقلد سي قدور بن الحاج الصحراوي أحد أتباع الأمير عبد القادر الزعامة الدينية لقبيلة الأحرار بسبب مناصرتها للمقاومة في الغرب بقيادة الأمير[64].

الخاتمة

-استعمل الفرنسيون الصلحاء كوسيلة للحكم من خلالهم، فبسطو نفوذهم بطريقة غير مباشرة وضعوا من خلالها القيادات التي تنتسب للصالح فالواجهة لإنجاز المهام التي كانوا يتلقون أوامرها

-إن ظاهرة ادعاء الشرف في العهد العثماني من قبل من هب و دب بغض الرفع من الشأن و الغلو فيهو التميز عن غيرهم تعتبر من ظواهر التخلف آن ذاك.

-ركزت الكتابات الفرنسية على الأساطير المتعلقة بالولي الصالح و العادات و الممارسات التي تتعلق بالضريح فقط، فأحيانا لم نجد نسب الصالح الذي كتب عنه إلا بالعودة الى كتب الأنساب.

-إعتمدت بعض الدراسات الفرنسية على العودة الى الدراسات الإسلامية و الأخذ منها مثل موطأ الإمام مالك وصحيح البخاري

-لم تركز الكتابات الفرنسية كثيرا على هذا لولي وهذا عائد أن سيد الناصر بوحركات لم يكن طرقيا، وبذلك فإن أتباعه انحصروا فقط في أحفاده بمنطقة واد القصب وما جاورها من مدن ، كما أنهم لم يكونوا من الموالين لفرنسا بل ناصبوها العداء بمؤازرتهم لمقاومة ا أمير بد القادر في الغرب.

- ومن خلال دراستنا هذه استنتجنا أن الولاء للقبيلة و الصلحاء لعب دورا هاما في تعزيز المقاومات الشعبية وجعل لها حدودا جغرافية وهذا ما جعل فرنسا تدرس هذه الظاهرة للتحكم بها، وبالتالي بث الجمود في نفوس الجزائرين وربطهم بالزعامات المحلية التي يجب أن لا تتغير بحكم نسبها الشريف، فتحل عليهم البركة و الأمان من الصلحاء المحليين.

---

[1]- ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مج 2، دار البصائر بيروت ، د ت ط ، ص516

[2]-أبي العباس أحمد الخطيب المشهور بإبن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، صححه (محمد الفاسي، ادولف فور)المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط، 1965م، ص03.

[3]-Cornail Trumlet, L'Algérie Légendaire En Pèlerinage çà et Là aux Tombeaux des principaux Thaumaturges de l'Islam (Tell et Sahara), Librairie Adolphe Jourdan, Alger,1892, p174.

[4]-إدموند دوتي، الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن ، تر محمد ناجي بن عمر،افريقيا الشرق للنشر و التوزيع، 2014، ص ص 16، 17.

[5]-محمد مكحلي، الأولياء و الصلحاء في الجزائر الظاهرة و الجذور، دار القدس العربي ، وهران،2020، ص74

[6]-محمد حجي، الزاوية الدلائية، و دورها الديني و العلي و السياسي، ط2، مطبعة النهج الجديدة،1988م،ص21 .

[7]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1998م، ص241.

[8]-نفسه،ص263.

[9]-سلطانة عابد، التراتبية الاجتماعية ببايلك الغرب و أثرها على مقاومة الأمير عبد القادر(1832-1874) مقاربة منوغرافية لمجتمع الخلافة الشرقية(آغاليكا مجاهر، قايدةفليتة، آغاليك الشرق أنموذجا)، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية بجامعة وهران، قسم التاريخ و علم الآثار، 2010م/2011م،ص202.

[10]-حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، ص252.

[11]-خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر(1830-1871)، منشورات دار حلب سوريا، دت ط، ص5.

[12]-نفسه ، ص17.

[13]-أنظر الفصل الثاني و الرابع من كتاب الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر(1830م-1871)، لخديجة بقطاش، منشورات در حلب، سوريا.

[14]-خديجة بقطاش، مرجع سابق، ص163.

[15]-شارل روبير أجرون، الجزائريون المسلمون و فرنسا1871م-1919م، نقله الى العربية م.حاج مسعود و أ.بكلي، دار الرائد للكتاب،2007م، ،ج 1،ص494.

[16]-نفسه ، ص515.

[17]-نفسه ،ص543.

[18]-إدموند دوتي،مرجع سابق، ص ص20،21.

[19]-Jules La Beame, Le Oran par ordre de matière, La revue Africaine , N12 , 1886, P05-13 ET 290-319.. للمزيد أنظر المقالتين

[20]-سلطانة عابد، التراتبية الاجتماعية ....،مرجع سابق، ص202.

[21]-Luis Rinn, Marabouts et khouans, Etude sur L'islam en Algérie, Adolf Gordan, Librairie- Editeur, Alger, 1984,p15.

[22]-للمزيد أنظر، مقال ابراهيم مياسي، ثورة أولاد سيد الشيخ، مجلة الذاكرة، ع4، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، منشورات الجائر،1955م، ص114.

[23]-ابراهيم مهديد، القطاع الوهراني ما بين 1850م-1919م دراسة حول المجتمع الجزائري، الثقافة و الهوية الوطنية، منشورات دار الأديب، وهران، 2006، ص17.

[24]-سلطانة عابد، مرجع سابق، ص202.

[25]-حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشوراتAnep،ط2 ،2005م، ص57.

[26]-نفسه ، ص60.

[27]-نفسه ، ص112

[28]-نفسه، ص ص 88، 89.

[29]-عبد القادر صحراوي، الأولياء و التصوف، مرجع سابق، ص134.

[30]-Mathéa Goudry, La femme chaouia de L'Aurès, Librairie Orientaliste Poul Geuthner, Edition Chihabe-Awal, 1929, P P 220, 221 ,225. .

[31]-ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954م، الجزء الرابع،دار الغرب الإسلامي ، 1998م، ط1، ص21.

[32]- Mathea Goudry, La société féminine au djebel amour et au ksel, Etude de sociologie rural nord -africain , société algérienne d'impressions divers 1961, p 314.

[33]-ناصر الدين سعيدوني، دراسات في الملكية العقارية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص55.

[34]-المكاتب العربية:مكاتب يشرف عليها ضباط يقومون بالمخابرات ويراقبن الأهالي، و تعيين فيه كذلك شيوخ القبائل من طرف السلطة الحاكمة،و هذا لمراقبتهم هم أنفسهم و راقبة أدنى أفراد الشعب مرتبة، وهذا بهدف إخضاعهم، لضمان عدم قيام المقاومات وجباية الضرائب،أنظر مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة و المجتمع، تر حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، ص301.

[35]- محمد الأمين شرويك، الطرق الصوفية في الجزائر بين نائية المقاومة والموالاة للاستعمار 1830-1954م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر،قسم العلوم الإنسانية، جامعة جيلالي اليابسن سيدي بلعباس، 2019-2020م، ص165.

[36]-حمدان خوجة، مصدر سابق، ص125.

[37]- عبد القادر صحراوي، الأولياء و التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني(1520م-1830م)، دار هومة للنشر والتوزيع، 2016م، ص

[38]-حمدان خوجة، مصدر سابق، ص257.

[39]-Cornail Trumelet, L'histoire de l'instruction dans le sud de la province d'Alger en 1864, La revu africaine, N20, 1876, pp179 180

[40]-عبد السلام العمراني الخالدي ، الأنوار الدررية الباهرة في ذرية سيدتنا فاطمة الزهراء الطاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت.ط. ص149.googl books، على ساعة 21 مساءا بتاريخ 10-01-2022.

[41]-المريني العياشي، الفهرس في عمود نسب الأدارسة، ط1،المغرب، 1986م،ص74.

[42]-.احمد بن محمد العشماوي، السلسلة الوافية و الياقوتة الصافية في أنساب اهل البيت المطهر أهله بنص الكتاب، ص47. مخطوط منشور عبر الانترنات.

[43]-Mathéa Goudry, La société féminine, op, cit, p 314.

[44]-ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الإسلامية للنضر و التوزيع، مصر، 2001م،ط1،ص54

[45]-Cornail Trumlet, L'algérie Légendaire op ,cit ,p177.

[46]-Emil Dermenghem, Le pays d'Abel le Sahara des Ouled-Naïl des Larbaa des Amour, L'espéce humaine /18, Gallimard, 1960, p118.

[47]-E. Mongin , Note sur l'histoire de Laghouat, Adolphe Jordan librairie - Editeur.1895. p p 25 24

[48]-Cornail Trumlet, L'Algérie Légendaire, op, cit, p177.

[49]- Ibid. p180.

[50]-E. MONGIN, op, cit.p p,252,

[51]- G. Margueritte, El-Aghouat, Le spectateur Militaire, Recueil de science d art et d histoires militaires fondé en 1826, quatrième série, T14, 1881, p p 363 364.

[52]- Ibid, p365.

[53]-Cornail Trumlet, L'Algérie Légendaire, op, cit, p180.

[54]-Emil Dermenghem, Le pays d'Abel le Sahara des Ouled-Naïl des Larbaa des Amour, L'espèce humaine /18, Gallimard, 1960, p118.

[55]-Emil Dermenghem, L'histoire de Laghouat, La revue africaine, N18, 1892, p371.

[56]-قبائل الاحرار: قبائل سكنت جنوب غرب مدينة تيارت، سمو لاحقا بولاد سيد الناصر بعد أن صاهروا هذا الولي الصالح، و ليناصرو لاحقا الأير عبد القادر أنظر

-Fabre, Monographie de la commune mixte indigène de Tiaret-Aflou, Société de Géographie et d' Archéologie de la province d'Oran, t22, 1902, p p 283.284

[57]-CornailTrumlet', L'Algérie Légendaire, op, cit, p180.

[58]-.احمد بن محمد العشماوي، السلسلة الوافية و الياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله بنص الكتاب، ص75. مخطوط منشور عبر الانترنات.

[59]-Cornail Trumlet, L'Algérie Légendaire, op, cit, p182.

[60]-Ibid, p183.

[61]-E. MONGIN, op, cit.p p 25 24

[62]-Cornail .Trumelet, Les français dans Le désert, Bibliothèque Emil Gratzel, Paris, 1963,p207

[63]-MATHEA GOUDRY, op ,cit ,p 323.

[64]-ابراهيم مهديد، القطاع الوهراني...، مرجع سابق، ص37.